في الأدب الأميركي الحديث

بقلم جبرا ابراهيم جبرا

يقول الأمريكيون ان الزعامة الدولية في العالم فرضت عليهم فرضاً بعد الحرب العالمية الأخيرة ، فعليهم لذلك ان ، ينهضوا بأعباء زعامة ما كانوا مستعدين لها ، ولكنهم يأملون بمواردهم الطبيعية الهائلة وتقدمهم التكنيكي في كل ميدان ، ان لا يخفقوا في بلوغ هذه الغاية .

وهم يتطلعون ايضاً الى زعامة العالم في الثقافة والفن ، وان كانوا لا يزالون يرون في انكلترا وفرنسا معلمتين لا غنى لهم عنهما . وتتردد كلمة « الثقافة » على ألسنة الأمريكيين اكثر من غيرهم ، لشعورهم بحداثة تاريخهم ، وليقينهم بان الحطورة السياسية لن تكتمل إلا بنشر الثقافة ورعاية المقدرة الابداعية وتقويتها في ابنائهم . ويمكن تحقيق هذه الغاية عن طريقين : الأولى ،درس الحضارة الأوروبية والتاريخ الأوروبي وهضمها ، لكي تبقى الحضارة الأمريكية امتداداً للحضارة في اوروبا ؛ والثانية ، خلق أدب أمريكي بحت ، يعنى بالمشاكل المحلية التي اوجدها توسع الأمريكيين في القارة غرباً ، وتضاعف السكان بسرعة عجيبة في المئة السنة الأخيرة (من حوالي ٣٥ مليوناً الى ١٥٦ مليونا) ؛ وقيام المدن الضخمة التي تنمو طولاً وعرضاً وعلواً بشكل رهيب .

ارشيبالد ماك ليش

والطريق الأولى يتوضح نهجها في برامج الجامعات الكبرى (فهارفرد مثلاً تدعو نفسها خليفة الجامعات الألمانية وجامعتي اكسفورد وكمبرج ، وتدعي انها الآن اكثر نشاطاً وإبداعاً من سابقاتها) ، وفي ظهور بعض الروائيين المتشبعين بالروح الأوروبية — كهنري جيمز ، وفي الانصراف الى النقد الأدبي ، لدرس الآثار الماضية دراسة دقيقة شاملة .

اما الطريق الثانية فتبدو معالمها في الأفلام والتلفزيون ومئات المجلات المصورة التي تستهدف التسلية وخدمة العامة . ولكنها تبدو على احسنها في تآليف الشعراء والروائيين الذين يستقون مادتهم من الحياة الأمريكية الصرف ، امثال ويتمن وملفل Melville في القرن الماضي ، وأرنست همنغواي وسنكلير لويس ووليم فولكنر Faulkner وجون ستاينبك في هذا القرن ، وبينهم الكثير ممن لم يحظ بدراسة جامعية .

والظاهرة التي يلحظها القادم الى هذه البلاد لأول مرة ، هي العناية العجيبة بالنقد الأدبي التي يبديها قسم كبير من الأدباء (وكثير منهم شعراء او روائيون ، فضلاً عن كونهم اساتذة في الجامعات) . فهم يغرقون في دراسة النصوص [1] ، واستخلاص صورها الشعرية imagery ، والنفاذ الى رموزها ، واكتشاف المعاني الباطنية والارتباطات الخفية فيها ، حتى كاد النقد ، وقد غدا مجالاً لجلو المواهب وشحذ الفكر ، ان يحل محل الكتابة الابداعية عند بعضهم . وغدا النقد يسمى في الغالب « النقد الابداعي » Creative Criticism . ولكن يخشى الانسان ان هذا الانصراف الشديد الى تمحيص النص والتدقيق في الشكل يؤدي احياناً الى شيء من البيزنطية ، وبالتالي الى الجدب في نواحي الخلق . ولذلك نسمع شكاوى كثيرة من الأدباء خلاصتها ان الشعر الجيد في البلاد قليل الآن ، وان التغلغل في الدراسة الى المنابع اللاواعية في شعر الشعراء الكبار — امثال شكسبير وملتون ودن وكيتس وشلي وكولردج — قد ينتهي بالدارس الى العجز عن الاستسلام لما عنده هو من منابع لاواعية — لشدة يقظته المستمرة — فيصبح في النهاية استاذاً للأدب لا مبدعاً له . غير ان الجامعات تهتم بالكتابة الابداعية

(١) وهذا النقد يختلف عن (النقد التاريخي) الذي كان شائعاً في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وهو الذي يعنى بتراجم الادباء ودراستهم من حيث تفاصيل الحوادث في حياتهم وعلاقتها بكتاباتهم .

اهتمامها بالنقد ، فأوجدت مناهج معينة لها ، يقوم بادارتها عادة كتاب وشعراء احرزوا مكانة مرموقة في إبداعهم .

وفي البلاد عدد كبير من الشعراء ، وان انصرف الكثير منهم الى النقد او الرواية. وقد كان الشعر حتى الحرب الأخيرة تحت تأثير تي. اس. إليوت T. S. Eliot ، الذي عبّر عن المحل النفسي والوحشة الانسانية في فترة ما بين الحربين (كما فعل أرنست همنغواي برواياته عن « الجيل الضائع » The lost generation) ولكن تأثيره الآن في تقلص سريع ، إذ عاد الشعراء الشباب الى غنائية الشاعر الأرلندي يتس W. B. Yeats (الذي توفي قبيل الحرب الثانية) . وبيتر فيرك أحسن من يمثل هذا الاتجاه الغنائي الجديد ، والعودة الى الوزن والقافية ، وعدم الترفع عن عرض عواطف الحب والحماسة للحياة والجمال.

وقد بقي في الشعر الأمريكي تأثير إزرا باوند Ezra Pound الأمريكي (وهو شاعر يتسرب اطلاعه العجيب الاتساع إلى شعره فيعقّده جداً ، وقد جاهد في نظمه ونثره لتحرير الانسانية مما يدعوه « حكم الربا » Usurocracy) ولعل تأثيره ناجم عن مقالاته ورسائله المدهشة باسلوبها ولغتها التي يدعو فيها الى التركيز والغناء في الشعر ، اكثر مما هو ناجم عن قصائده المدعوّة « Cantos » لصعوبتها وعسر فهمها . وهو الآن رهين مصحّ عقلي بأمر من الحكومة بعد ان اتهم بالخيانة لاذاعاته من روما في اثناء الحرب . ومع ذلك فانه قبل اربع سنين أعطي جائزة الكونغرس للشعر لديوان نظمه وهو في المصح .

ويقف بين هؤلاء ارتشيبولد مكليش Archibald Macleish الشاعر الذي حصل على اكثر جوائز الشعر في السنة الأخيرة ، والذي ما زال يرى في الشعر مسؤولية الفنان تجاه المجتمع والحرية ، قائلاً إن على الفنان ان يكون حارساً على مصالح الأمة ، ينبهها الى ما يهددها ، ويدافع عن خيرها ضد الطغاة . (ويرى معظم الأمريكيين في السناتور مكارثي قوة تهدد حريتهم وتسعى الى إفحام كل صوت لا يتفق مع صوته، خالقاً بذلك جواً من الخوف لم يعرفه الأمريكيون من قبل .)

بيد ان الحدث الأهم في عالم الشعر هنا كان صدور ديوان الشاعر الانكليزي ديلن توماس . وقد بيع من الكتاب حال صدوره عشرة آلاف نسخة ، مما أدهش الأدباء ، فذاك رقم لم يحلم به شاعر ! ولا ريب أن شعر ديلن توماس (وهو على حدود الاربعين الآن) سيؤثر في توجيه الشعر نحو الغنائية اللفظية والموسيقية الصاخبة التي يوحيها جمال الاشياء . ويعثر في اكثر الاحيان تحليل صوره الشعرية لانها سريالية ، ولكنه يأنف من الكلمات ذات المعاني المجردة Abstractions ، ويحيك نسيجاً متيناً من الالفاظ الحسية يكاد القارىء يستشعرها كالسكين في جسمه . (وهل آفة الكتابة العربية الحديثة إلا التخبط في مستنقع المجردات والمعنويات ومصادر الأفعال ؟)

ولكن مهما قيل فان مكانة الشعر قد تزعزعت في الانتاج الأدبي الحديث . والظاهر ان لكل فترة من فترات التاريخ ضرباً من الكتابة يعلو على غيره اهمية وجاذبية. ونظرة واحدة الى الوراء في تاريخ الادب الغربي ترينا التطور من الملحمة (في العصر الكلاسيكي)، إلى الرومانس (في القرون الوسطى) ، الى المسرحية (في عصر النهضة) ، الى الشعر الغنائي (في القرن الماضي) ، الى الرواية (في هذا القرن) . ولعل هذه الاشكال الادبية كلها توجد معاً في آن واحد، غير ان كل عصر يخصب بأحدها دون الاخرى ، تبعاً لتغير الذوق وتغير الامكانيات . وما من شك في ان الادب الأهم في هذا العصر هو أدب الرواية .

وليم فولكنر

والامريكيون يعتزون بكتابهم الروائيين، لا سيما بعد ان رأوا ما لرواياتهم من وقع في نفوس الاوروبيين . ففي بحر اثنتين وعشرين سنة نال اثنان من الروائيين الامريكيين جائزة نوبل ، هما سنكلير لويس ووليم فولكنر. غير ان حصول فولكنر على هذه الجائزة – وهو إقرار بخطورته الادبية في العالم – كاد يدهش الامريكيين ، إذ لم ينتبهوا اليه كثيراً في العشرين السنة الاولى من كفاحه الأدبي ، في حين اهتم الفرنسيون برواياته ، وتصدوا لدرسها وتحليلها ، فكانوا السبب في لفت الانظار اليه في العالم وفي امريكا. وتدور قصصه حول الاصقاع الجنوبية من الولايات الامريكية، وينتقي من المواضيع ما هو مرعب او قبيح او شرس ، كأن الحياة تحدو بها قوى شريرة عارمة على الانسان ان يصارعها .

ولعل الخطاب القصير الذي القاه فولكنر في ستوكهولم يعيّن نهاية الاتجاهات التي عمت من ١٩٢٠ الى ١٩٥٠ ، وينذر الأدباء بمسؤولياتهم تجاه الحياة والانسانية (بعد ان كانوا في الغالب يستخفون بمثل هذا الرأي في السنوات الماضية . فقد قال ان الأمر الوحيد الذي يستحق عناية الكاتب هو : « مشاكل القلب في صراعه مع نفسه »، وقرن هذا الموضوع بمأساة هذا العصر : « ذلك الخوف الجسدي العالمي الشامل ، الذي قاسيناه ردحاً طويلاً من الزمن حتى جعلنا نستطيع ان نتحمله . » واذا لم يكتب الاديب عن « الحقائق العامة القديمة ، حقائق النفس البشرية ، « فانه سيكتب وقد وقف ليرقب نهاية الانسان .» ثم يقول : « إنني لن أقبل بذلك . انني اعتقد ان الانسان لن يبقى فحسب . . صوتاً هزيلاً لا ينضب [في عالم من الخرائب] بل سينتصر ايضاً . فهو خالد لا لأنه وحده بين المخلوقات ذو صوت لا ينضب ، بل لأن له روحاً ، لأن له نفساً تستطيع الشفقة والتضحية والجلد. وواجب الشاعر ، وواجب الناثر ، هو ان يكتب عن هذه الاشياء . . »

آرثر ميللر

اما معاصر فولكنر ، الروائي ارنست همنغواي ، فقد كان صاحب الشهرة العالمية لسنوات طوال ، واقتدى باسلوبه عشرات من الكتاب . وهو اسلوب شديد الايجاز ، قريب من الكلام المحكي ، يكاد يخلو من النعوت والمجردات . ولكن همنغواي كاد يأفل نجمه في السنوات الأخيرة وعندما اصدر كتابه « عبر النهر إلى الشجرة » قال النقاد بموته الأدبي ، الى ان اصدر في اواخر العام الماضي قصته الطويلة « الشيخ والبحر » The old man and the sea ، واذا هي رائعة الاسلوب والموضوع ، تدنو بجمالها من المأساة الشعرية . وهي تدور حول الجلد (الذي يصرّ عليه فولكنر) في وجه الصعاب التي هي رمز للشر المقاوم للانسان . والقصة بسيطة التركيب ، بطلها صياد سمك عجوز يخرج الى البحر ، وبعد عناء ايام مريرة يصيد سمكة ضخمة Marlin يربطها الى جانب قاربه ، ولكن كلاب البحر تهاجمه اثناء عودته ، وتقتطع اجزاء من السمكة كل مرة ، وهو يهوي عليها بمجذافه وسكينه ، الى ان يفقد كل ما عنده من سلاح بسيط ، ويبلغ قريته بعد ايام وليال من الصراع ولم يبق من السمكة إلا هيكلها العظمي . . البطولة رغم كل خسارة :

وهكذا في بلد تتنافس فيه السنراما (السينما الفسيحة ، وشاشتها ثلاثة اضعاف الشاشة المألوفة) ، والأفلام ذات الأعماق الثلاثة 3 Dimensional ، والتلفزيون ، ومئات المجلات الرخيصة وآلاف الروايات الصفراء التي تستغل الجنس والسادية ، للسطو على عقول الجماهير والتلاعب على عواطفهم المبتذلة ، تستمر الحركة الادبية في نشاطها ، تمحص وتغربل وتبتدع . أما المجلات التي تحافظ على المستوى الفكري الرفيع فهي « المجلات الصغيرة » Little Magazines . وهي محدودة الانتشار ، ولكنها واسعة النفوذ ، واكثرها مجلات فصلية قليلة الصفحات اذا قيست بالمجلات الشعبية التي تباع بالملايين (فلا عجب اذا احتجبت الرسالة والثقافة والمقتطف عندنا !) والشطر الاكبر منها يقوم باصداره وتمويله هيئات جامعية .

وقد عمدت كثير من دور النشر الآن الى نشر بعض كتبها القيّمة (التي تباع عادة بين ٣ و ١٠ دولارات) في طبعات رخيصة مجلّدة بالورق المقوى ، فقباع بربع او ثلث الدولار ، كغيرها من الروايات الصفراء ، وتعرض لا في المكاتب فحسب ، بل عند بائعي الجرائد ايضاً ، وفي الصيدليات ودكاكين الخضرة والسمانة والمطاعم ، واذا هي تباع بمئات الآلاف . وبينها الكتب الكلاسيكية كالالياذة ، واعترافات القديس اوغسطين ، والأمير لمكيافلي ، والكتب الحديثة كروايات فولكنر والدوس هكسلي والبرتو مورافيا وغيرهم . وظهرت في السنة الأخيرة مجلات أدبية في مثل هذه الطبعات ، لترويج التأليف الحديث واكتشاف المواهب الجديدة لعل أهمها : New World Writink ، وتظهر مرتين في السنة ، و Discovery وهي موقوفة على المؤلفين الجدد ، وتصدر كلما توفرت لديها المواد .

ورغم اعتراف النقاد بأن الانتاج الادبي في الفترة الراهنة لا يتسم إلا اقله بالجودة التي تضعه في المقدمة من آداب العالم ، فان في امريكا نهضة في الفن والأدب تذكر المرء بفورة الحماسة التي عرفتها اوروبا في عصر نهضتها . فالمسرح نشيط وهناك معارض فنية كثيرة ورسامون كثيرون ، وفي المدن الكبرى ، كنيويورك وبوسطن ، فرق موسيقية لا تضاهيها في اوروبا إلا فرق قليلة . ونيويورك على كل حال ملتقى فناني العالم وادبائه . ولا يتردد الامريكيون في استجلاب ذوي المواهب النادرة اينما وجدوا : فالمجال لنشاطهم وإثرائهم واسع في هذا البلد المتعطش الى الثقافة .

جامعة هارفرد – الولايات المتحدة **جبرا ابراهيم جبرا**